العرب
الأحد 2020/01/05
السنة 42 العدد 11577

تطبيع مع التاريخ

لوحة سعد يكن

علي المقري
روائي يمني

قبل أن أكتب رواية "اليهودي الحالي" كانت لدي أسئلة كثيرة، تتعلّق بمحنة الوجود الإنساني، وتتشعب إلى استفهامات أخرى عن الوطن ومفهوم الوطن، وهل الوطن ضرورة؟ ولماذا يتحوّل إلى قسوة حين يتحول من مفهوم أو فكرة إلى ممارسة يومية؟

حاولتُ أن أنشغل بهذه الأسئلة في روايتي الأولى، لتتبعها "اليهودي الحالي" التي بدت لي ملحّة، في كثير من صورها، في الذاكرة.

في عودتي للتاريخ اليمني وجدت أن الديانة اليهودية كانت أكثر الديانات انتشاراً ومكانة لدى اليمنيين قبل الإسلام، حتى إن ملكين (أسعد الكامل وذو نواس) اعتنقا هذه الديانة لتصبح بمثابة الديانة الرسمية أو المركزية

فأنا نشأت في مجتمع يتعامل مع اليهود كزائدة وطنية، لا بد من إخضاعها للجسم الكلي، أي أسلمتها ودمجها في الثقافة السائدة، وما عدا ذلك فهي غير مرغوب فيها.

كان المجتمع المعاش يطلق على كل من هو سيء، من المسلمين، صفة اليهودي، وإذا أراد أحد أن يوجه شتيمة إلى شخص ما قال له "يا يهودي يا ابن اليهودي"، منطلقين من مقولة "إن اليهودة بالقلب"، على اعتبار أن كل يهودي سيء، من وجهة نظرهم.

وهكذا، بحثت عن هؤلاء اليهود ليصبحوا جزءاً من انشغال دائم ظل قرابة ثلاثين سنة، وذلك إضافة إلى أخبار الصراع العربي-الإسرائيلي التي أسمعها كل يوم منذ طفولتي، حيث شدتني إلى تعزيز هذه الأسئلة بتساؤلات عن خلفية هذا الصراع، ولماذا؟

في عودتي للتاريخ اليمني وجدت أن الديانة اليهودية كانت أكثر الديانات انتشاراً ومكانة لدى اليمنيين قبل الإسلام، حتى إن ملكين (أسعد الكامل وذو نواس) اعتنقا هذه الديانة لتصبح بمثابة الديانة الرسمية أو المركزية؛ وأنه بالرغم من كل التحولات التاريخية العاصفة، بقي لليهود مكانتهم في المجتمع اليمني، بل كانوا عماده وأسياد فنونه الجميلة وأعماله المهمة، حتى العصر الحديث (وهو ما صار في متناول روايتي "بخور عدني").

وقد أخذني بحثي إلى اكتشاف جوانب مهمة في تاريخ هذا الصراع بقيت مغيّبة، في الأدبيات العربية الحديثة، ومنها نظرة كتب التاريخ العربي لليهود سواء في حياتهم المشتركة أو في علاقاتهم المكانية والصراع حول ذلك، إضافة إلى النصوص الدينية وتفسيراتها، وأثرها على مفهوم الوطن: الوطن الحلم المدون في الكتب القديمة والوطن المحقق المعاش.

كل هذه الأسئلة، أظن أنني اختبرتها في الرواية من خلال قصّة حب بين فاطمة المسلمة وسالم اليهودي، وما يتبع علاقتهما من مصائر.

ولأنني لم أنطلق من موقف أيديولوجي أو سياسي أو أخلاقي فإنني بالتأكيد لم أقدّم إجابات على هذه الأسئلة، أو أحدد مسارات للحل؛ فالإشكالية بقيت حتى آخر سطر في الرواية.

ولقد لقيت الرواية الكثير من التنويهات النقدية والقرائية، وازداد أعداد طباعتها وترجمتها، ومع ذلك هناك من استبق، حتى قراءتها، وراح يتهمني بالتطبيع!

التطبيع مع من؟

سألتُ نفسي حينها، ووجدتني أظن أنني فعلاً ذهبت إلى التطبيع، أو المصالحة والترميم، ولكن مع التاريخ.

فالرواية لا تعبّر عن موقف حزبي أو أخلاقي، أو تقوم بالتلميع والدعاية لأيّ جهة سياسية أو أيديولوجية، سواء مسلمة أو يهودية، لأنها إذا قامت بمثل هكذا دور فإنّها تكون قد خسرت صفتها الروائية.

إلى ذلك، لا يمكن أن أتحدث، وأنا في عجالة من وقتي، عن كل ما يتعلّق بهذه الرواية "اليهودي الحالي" أو في اشتغالي عن مجتمع اليهود في عدن في رواية "بخور عدني".

وبالذات ما يتعلّق في الجوانب الفنية، حيث استفدت من شكل السرد العربي القديم في كتب الحوليات والتي تهتم بسرد ما هو أهم دون التركيز على التفاصيل، لكن ذلك جاء دون مماثلة أو مطابقة، مع استفادة من خبرات السرد الحديث طوال أكثر من أربعة قرون.

بابل الثانية

الهوية الملوّثة في الرواية اليهودية المكتوبة بالعربية

عبدالله إبراهيم
ناقد عراقي

شكّل موضوع الهُويّة وإعادة تعريفها، المحور المركزيّ في الرواية اليهوديّة المكتوبة بالعربيّة، أو التي كتبها روائيّون يهود عاشوا في بلدان عربيّة، وكتبوا عن أحوال طائفتهم، أو تلك الروايات العربيّة التي كانت أحوال اليهود موضوعا لمتونها السرديّة، أقصد بذلك هُويّة الجماعة اليهوديّة في بيئة ثقافيّة عربيّة-إسلاميّة، ففي تلك الروايات تعوم رغبة صريحة في ذكر تفاصيل الحياة اليومية على خلفيّة من الشعور بالاقتلاع وعدم الاندماج، والبحث عن هُويّة بديلة تخطّيًا لهُويّة ملوّثة، مع الرغبة في الابقاء على الهوية الأصلية؛ فمعظم الروايات اليهودية المكتوبة بالعربية عرضت شغفًا منقطع النظير بالبيئات الأولى، فقد اشتبكت بالمرجعيّات الاجتماعيّة الحاضنة لها على نحو يتعذّر معه فكّ الاشتباك بينهما، فلا يمكن تعريفها إلاّ بتلك المرجعيّات وأحداثها التاريخية، وباللغة التي كتبت بها.

عدّت هجرة اليهود من العراق إلى إسرائيل في مطلع خمسينات القرن العشرين نوعا من الاقتلاع من وطن عاشوا فيه مدة طويلة جدا، ووقع تهجيرهم القسري في ظروف سياسية بالغة الحساسية على خلفية ظهور دولة إسرائيل في فلسطين، مما عدّه كثيرون هجرة إجبارية مناظرة لتهجير اليهود إلى العراق في حوالي منتصف الألف الأول قبل الميلاد، إذ اعتبروا حياتهم الجديدة في إسرائيل "نفيا بابليا ثانيا" وذلك يناقض الرواية الشائعة القائلة بأن إعادة اليهود إلى "أرض الميعاد" تحرير لهم من شتات طويل، فثمة تنازع في صلب مفهوم الهوية.

في بحث استقصائي كتبه زفي بن دور بعنوان "النفي اللامرئي: اليهود العراقيون في إسرائيل" عرض فيه حقائق التهجير في ضوء جديد مخالف للرواية الاسرائيلية الرسمية القائلة بعودة اليهود إلى وطنهم الأصلي بعد شتات طويل، وكشف الظروف المعقّدة التي رافقت تلك العملية التي جاءت أقرب ما تكون إلى حالة انتزاع من الوطن الأصلي تحت طائلة الخوف المبالغ فيه، وعلى هذا اعتُبر المهجّرون في إسرائيل صنفا من اللاجئين-المواطنين، فهذا "الوضع الغريب الذي فرض على يهود العراق من حيث كونهم مواطنين ولاجئين في آن ليكشف عن الفجوة المعيقة التي ما فتأت تتّسع بين أنموذج العودة اليهودية التي تروّج لها الأيديولوجية الصهيونية، والتاريخ الفعلي المُعاش للعديد من هؤلاء اليهود الذين هاجروا إلى إسرائيل.

بيّن هذا الوضع على نحو جليّ أن الصهيونية وهي الأيديولوجية التي استندت في وجودها إلى مفاهيم الخلاص وإنهاء النفي والعودة والإعادة أنتجت في جوهرها أشكالا جديدة من النفي تحرص هذه الأيديولوجية على إبقائها لامرئية؛ لأن المعنيين بها هم نفس الأشخاص الذين أسهم خلاصهم في إنكار احتمالية النفي ذاتها. على وفق ذلك، فإن حالة النفي الدائم التي عبّر عنها السواد الأعظم من الكتاب اليهود من أصل عراقي لا يمثل نفيا من العراق، فحسب، ولكن، والأهم، نفيا عن الحل. وفهمهم الغريب هذا لوجودهم بوصفه نفيا مزدوجا يبدو متوافقا إلى حدّ بعيد مع السرد المزدوج لدولة إسرائيل".

تركت هذه الحالة الملتبسة من الاقتلاع أثرها في وعي ولاوعي الكتاب اليهود من أصول عراقية، إذ ذهب شمعون بلاص إلى أن مغادرة اليهود للعراق كانت "مأساة إنسانية لا سبيل إلى الخلاص من آثارها". ولم يعترف بانتمائه للأدب العبري. بل إن سيرته الذاتية الحوارية جاءت بعنوان "وطن في المنفى". واعترف سمير نقّاش الذي رفض الكتابة بالعبرية، بأن الرحيل من العراق كان "بمثابة صدمة شكّلت سنوات حياته اللاحقة وتركت أثرا لا يمحى فيها" ما دعاه إلى الهروب من إسرائيل بصحبة عمّه عائدين إلى العراق، لكن وشاية أدّت إلى اعتقالهما في لبنان مدة ستة أشهر أعيدا بعدها إلى إسرائيل، بعد أن صودرت مخطوطاته التي كان يحملها معه، وكل ما نشره نقّاش من نصوص سردية عكس "الآفاق الواسعة لخياله الفكري وتعلّقه العاطفي بوطنه الأم، العراق"، ومنها كتابه "قصص وأشواق لبغداد".

لم يقتصر الاحساس بالنفي الجديد من العراق إلى إسرائيل على نقّاش وحده، بل شمل ذلك سامي ميخائيل الذي عبّر عن خطأ قبول الهجرة "ما أن وصلتُ إسرائيل حتى نشبتْ الحرب بين دولة سامي ميخائيل ودولة إسرائيل". وعلى هذا يبدو "أن العراقيين في إسرائيل هم أبطال المنفى وضحاياه في آن". وطبقا لزفي بن دور فإن أيّ نظرة سريعة على السرود التي كتبها يهود العراق تكشف "ولع الغالبية العظمى من الكتاب اليهود من أصل عراقي بموضوعة المنفى"، فمعظم تلك الآثار الأدبية وقف طويلا على "لحظة محدّدة من تاريخ اليهود العراقيين: لحظة الرحيل عن العراق" ولم "تترك شاردة ولا واردة إلا ووثّقتها وصوّرتها".

وكانت لحظة المغادرة هي المنعطف التاريخي بين ضربين من الحياة: أليف اعتاد اليهود عليه، ومضطرب لم يكن محسوبا، وقد وصف نقّاش ذلك بقوله "إن الوصول إلى إسرائيل لم يكن يعني شيئا لليهود العراقيين، بل إنها لحظة الرحيل عن العراق بكل ما تفاصيلها ومدياتها ونتائجها التي صيّرت لحظة الرحيل الحدث الأكثر إيلاما في حياة اليهود العراقيين". وعلى هذا تميزت "الكتابات العراقية في روعة تعبيرها عن تلك العلاقة الفريدة التي تربط مؤلفيها بوطنهم الأم-العراق". ظهر تلازم بين كثير من الأعمال السردية وحاضنتها العراقية مما جعل فصم الصلة بينهما لا فائدة منه.

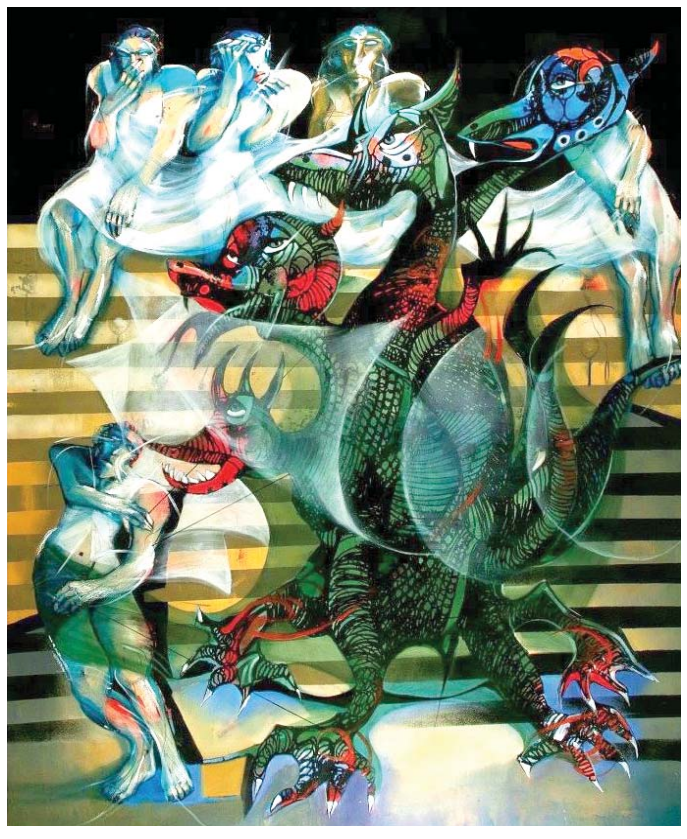

لوحة سعد يكن

الآخر واضحا ومستتراً

لوحة غيلان الصفدي

مايا أبو الحيات
كاتبة فلسطينية

لا تسمح الثقافة العربية وأحيانا السياسة بالتعامل مع الآخر كحالة وجود إنسانية طبيعية. فهناك الآخر الذي يشبهني ولا يمسّ إنسانيتي لكنه لا يشبهني في التصرفات أو الدين أو العرق أو الجنس. إنه آخر حميد لا يؤلم ولا يشكل خطرا، لكنه غير مقبول ومنبوذ من الأغلبية التي تحكم أو تسيطر فكريا ودينيا، ويتم التعامل معه دائما بحذر وترقب وانتظار.

هذا الآخر المفضل في الأدب والذي يمكن التعامل معه بإنسانية كاملة ويمكن النظر من زاوية النظر التي ينظر منها. إنه آخر يمكن الحديث عنه بانفتاح وتقبّل، في مساحة آمنة مثل الأدب. لأنه آخر ضعيف، مهمّش، تهيمن عليه قوة ضاربة يمكن أن يكون الكاتب واحدا منها. ويمكن أن يدرج ضمن هذا النوع "الآخر" الذي يمكن له أن يتحول إلى عدوّ، إنه آخر متوقع ويقف منه الأدب موقفا أخلاقيا حذرا، هذا الآخر الذي ينحدر أخلاقيا، إلى صفة العمالة، أو الانحطاط لكنه لم يصل بعد إلى صفة الآخر الكامل.

الآخر الكامل هو آخر تتم شيطنته بالكامل في الثقافة العربية ويتم التعامل معه على أنه غير موجود أصلا، فيتم نفيه وشيطنته وتحويله إلى أسطورة أقرب إلى الخيال، ويمكن هنا فهم الدافع الذي جعل أصحاب مؤسسة مناهضة التطبيع في البحرين إلى تطهير المكان الذي التقط فيه صهيوني صورة له، مشهرا جواز سفره الإسرائيلي. فهذا الآخر يتم التعامل معه على أنه نجس ثقيل لا يمكن استيعاب أن تسكن إلى جواره أو يخطو في نفس المكان الذي تمرّ منه. لقد خلق التاريخ العديد من الآخرين الكاملين الذين اندثر معظمهم، وإن كانوا ينولدون في المنطقة العربية من جديد كل فترة.

لكن كيف يتعامل الأدب مع حتمية وجود الآخر (الذي قد يكون آخر للكاتب والهوية الجمعية التي يمثلها ولا يكون آخر للآخرين) دون المساس بإنسانية النص، وكيف يمكن أن ننظر من وجهة نظر الآخر الكامل، دون أن نُتّهم بالتعاطف مع العدوّ وتحويله لإنسان وهي تهمة وجهت إلى العديد من الكتّاب والكاتبات الذين تناولوا الآخر في كتاباتهم على أنها تهمة، تصل أحيانا حد الخيانة، رغم أنها في التصنيفات الأدبية قد تكون فضيلة وحقيقة طبيعية. فلا يوجد عدوّ بلا عائلة، ولا يوجد عائلة أو طفل لا يستدعي نوعا من التعاطف والتفهم.

لقد شكّلت لي هذه المسألة معضلة كبيرة في بداياتي، فأنا لم أر جندي احتلال إسرائيليا قبل دخولي إلى فلسطين وبنيت معظم علاقتي معهم من خلال نشرات الأخبار والأغاني الوطنية والشعارات الكبيرة.

لكنني رأيتهم مرة واحدة مع بداية الانتفاضة الثانية، كانوا يتدفقون نحو البيوت والشوارع والجبال، ينكّلون ويتكلمون لغة لا أفهمها بينما يتاتئون بعربية فارغة كلمات محددة كأنها منقولة من دليل استخدام بترجمة فاشلة.

ومرة صعد ستة منهم الأرض المقابلة لغرفة نومي وأنا أنظر نحوهم بمنظار جديد كان قد وصل لأبي هدية. وكنت سعيدة بتجربته في مغامرة حقيقية هذه المرة، خاصة وأن شابا صغيرا كان يحمل بارودة مصنعة يدويا وقف أسفل شباكي وبدأ يناوش الستة الذين ورغم كل الأسلحة والقنابل والطائرات التي كانت تساندهم، كانوا يرتجفون أسفل بدلاتهم العسكرية الثقيلة.

المسمّيات تجعل من الآخرين كتلة واحدة معدّة مسبقا للتفسيرات والإسقاطات الجاهزة في الذهن، وكانت كلمة الاحتلال الإسرائيلي هي الكتلة الكبيرة التي رسمت صورة جميع الجنود داخل بذلاتهم ودباباتهم وطائراتهم ككتلة واحدة كالحة اللون، في تلك الكتلة تلغى قيمة الفرد وتنتهي قصته الشخصية وهو يتحرك بخيوط الكتلة الكبرى التي تحركه.

بينما يبقى المحارب أو المقاوم الأعزل الوحيد حتى وهو يحمل بارودة صناعة محلية كشخصية وحيدة تستدعي قصصا وماضيا وحكاية، فما الذي يجعل شابا مثله يقف خلف جدار البيت ويطلق رصاصات متفرقة على فيلق مدرّب. وهنا تمكن الإشارة إلى أن الكتلة الأقوى عادة ما تستغل الكتلة الأضعف من الناحية الفنية، فمن حيث الجودة عليك أن تتعامل مع الكتلة الأقوى بنفس منطق التعامل مع الكتلة الأضعف، فيقال للأضعف إن عليه أن ينظر من الزاوية التي ينظر إليها الآخر، وإن عليه الحكم عليه من منظاره الخاص.

كيف يتعامل الأدب مع حتمية وجود الآخر دون المساس بإنسانية النص، وكيف يمكن أن ننظر من وجهة نظر الآخر الكامل، دون أن نُتّهم بالتعاطف مع العدوّ

ورغم أن العدالة تحتّم تساوي الكتل حتى يتاح لجميع الأطراف النظر إليها من نفس العين وإلا فإن هناك كتلة حتما ستسد النظر والأفق عن الكتلة الأخرى.

إن اختلاف المنظور يجعل الكتل غير المتساوية تعرّف الآخر وفقا لكتلته، الآخر الذي لا يحمل قصة مقابل الآخر المشنشل بالقصص.

لكن هل يمكن للحظة تساوي الكتل أن تساوي بين الآخرين ويمكن حينها محاكمة الطرفين محاكمة واحدة معرفيا وأخلاقيا وإنسانيا؟

في رواية "حبات السكر" وصفت جنود الاحتلال الصهيوني بالفضائيين رغم أن القصة واقعية جدا ولم تكن تستدعي أيّ فنتازيا أو خروجا عن الواقع، لكن وصف الفضائيين كان الوصف الوحيد الذي يمكن أن يحلّ لي هذه المعضلة، فهم فضائيون على البيئة التي يتجولون فيها، وفضائيون على الحالة الإنسانية، وعلى اللغة والآلة والزمن.

لكن الزمن الكاشف للذهول يحوّل الآخر الذي كان فضائيا إلى شخص طبيعي تحت المجهر، فتتوضح رؤيته وأبعاده وحجمه نسبة لحجمك. ويصبح اختيارك للكلمات حتى في عمل أدبي روائي اختيارا أخلاقيا لا مجال للتلاعب فيه أو المراوغة. إنه اختيار بين الصواب والخطأ.

لذلك اخترت في روايتي الأخيرة مثلا "جليتر" وصف الآخر الكامل كما هو، دون إضفاء شرعية الفضائي التي تجعله آخر جاهل لا يمكن له أن يفهم لأنه ليس من هذا العالم أصلا.